

تجليات الهوية في ديوان "النوارس تخترق جدار الصمت" لإبراهيم إسماعيل الشتات
The manifestations of identity in the Diwan "The Seagulls Go Through
the Wall of Silence" of Ibrahim Ismail Achatat

مديحة بشير الشريف

mediha bachir cherif

جامعة باجي مختار عنابة (الجزائر)

Badji Mokhtar University, Annaba (Algeria)

medihaacharif@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/10/18

تاريخ الإرسال: 2024/09/15

مَدِيحَةُ الْبَشِيرِ الشَّرِيفِ

تسعى هذه الدراسة إلى البحث عن الهوية وتجلياتها في ديوان "النوارس تخترق جدار الصمت" للشاعر الفلسطيني إبراهيم إسماعيل الشتات الذي يفتح على القضية الفلسطينية ويُعبّر عن واقعها المأساوي في ظل تشظي الأمة العربية والإسلامية وانقسامها بين متخاذل ومتهاون، ومطبع، ومتعاطف... كما يحتمل بين ثناياها مناطق السكت -البياض، الفراغات، التناص التزمز...- وهي آليات الانفتاح على الدلالة التي تعكس وعي الكتابة والانفتاح على عمق الانكسار الحضاري للأمة الفلسطينية/ العربية. وفي المقابل نجد الشاعر يستدعي المتلقي ليحمل معه جزءا من الهموم التي تعتره من خلال إشراكه في إنتاج الدلالة وتفعيل التأويل عبر مساحة حرّة يمنحها له في النص. وهو ما دفعنا إلى دراسة هذا الديوان والبحث عن مظهرات الهوية؟ ومدى توافقها مع مبنى النص الشعري؟ بعبارة أخرى إلى أي مدى وفق الشاعر في حمل عبء التضال بالقلم؟

الكلمات المفتاحية: الهوية؛ ابن الشاطئ؛ المتلقي؛ فلسطين؛ المكان؛ التناص.

Abstract :

This study aims at searching for the identity in the work of the Palestinian poet Ibrahim Ismail Achatat, "The Seagulls Go Through the Wall of Silence", He is open to "The Seagulls Go Through the Wall of Silence" the Palestinian issue and he presents in his work the tragic reality of Palestine through out the division of the Arabs and Muslim nations. He include esareas of sign, whitness

* مديحة بشير الشريف: medihaacharif@gmail.com

,intertextuality, and spaces and this is open to indication which reflects the awareness of writing and shows the refraction of the Muslim and Arabian civilization .On the other side ,we find that the writer calls the reader to share with him some of the worries through activating indication and interpretation in a free area in the text and this is what made us study this work to search for the identity and also to see to what extent it fits the poetic text .In other words to what extent the poet succeeded in the struggle by writing .

Keywords: the identity; Ibn Chatie; Receive; Palestine; Place; Intertextuality.



1-مقدمة:

لقد غدت التصوص الشعرية المعاصرة تؤثت بما يوافق رؤى وتصوّرات أصحابها شكلا ومضمونا، وتبحث عن قوالب جديدة توأم الهوية الإبداعية لصاحبها، فتعزّز الأفكار التي يطرحها ضمن سياق قصائده. وفي ظل الصراع القائم في فلسطين أكتست الكتابات الشعرية للشعراء العرب-لاسيما منهم أبناء فلسطين في الداخل والخارج- حلة التجلي بالمرور الحضاري والثقافي والديني لتجسيد الواقع الفلسطيني المزري في كتاباتهم، ولتنقل معاناة الوطن المغتصب، والتي سعى المحتل جاهدا لطمس هويته وإذابة معالمه، وما دامت "الهوية هي الحارسة للوجود، والضامنة لبقائه"¹ تتحدى كلّ مظاهر الاستبداد والقمع لتظلّ راسخة في أذهان الأجيال يتوارثها الخلف ويحيطونها بتسياب الصيانة والحفظ، ونتيجة لذلك نجد الشاعر إبراهيم إسماعيل الشتات أثث نصوصه الشعرية بمجموعة من المقومات؛ الروحية استحضر الأعلام العربية التي ترمز للانتماء العربي، والمكانية التي تعكس تجذر العربي في المنطقة. ومن هنا يمكن أن نساءل عن مظهرات الهوية؟ ومدى توافقتها مع مبنى النصّ الشعري؟ بعبارة أخرى إلى أيّ مدى وفق الشاعر في حمل عبء التضال بالقلم؟.

2- مفاهيم أولية

بعدّ مصطلح الهوية من المصطلحات التي يصعب تحديد مفهوم أو تعريف معين لها فهي كلمة معنوية تحتمل تأويلات كثيرة وردت عند الجرجاني بمعنى "أن يكون الشيء هو هو، وليس له مقابل مما يدل على ثبات الهوية"² فهي تمثل الثوابت التي لا تتغيّر ولا تتجدّد، وتنعكس صورة المجتمع من خلال هويته، كما تتحدّد

ملامح الشخصية من خلالها بدقة، ولذلك وجدنا شعراء المقاومة أكثر تمسكا بالهوية وانعكاساتها من خلال توظيفهم لها حتى تبقى حية، فلا تطالها يد الأعداء تشويها وإزالة. ولأن الهوية تتصف بها جماعة من الناس وتربطهم بوطن معين انتماء، فتجمعهم وحدة اللغة والعرق والدين والثقافة والعادات والتقاليد والأخلاق والسياسة... ولأنها "تتحقق في أشكال عديدة سواء كانت منطوية أو منتشرة، إلى الداخل أو إلى الخارج... فمن يفقد هويته يفقد قدرته على الحركة والنشاط، وتبخر طاقته التي تحركه ويعتزل الناس في حالة انكماش أو انقباض أو تقلص مثل الحبيب الذي هجرته حبيبته أو القريب الذي فقد أعز الناس إليه، وقد يشعر بالضيق لأن الهوية هي الوجود³ ولعل المقاومة الفلسطينية جعلت من أوجه الهوية على اختلافها وتعديدها معادلاً موضوعياً تستدل به على الحق الشرعي الذي سلب منها، فكانت العون والسند على أن فلسطين وطن العروبة بما تملك من هويات عربية وإسلامية انغرس منذ القدم، وبذلك وحدت الأمة العربية والإسلامية إلى جانبها رغم ما يفرضه الواقع من عراقيل وتحديات ف"هوية الأمة هي هوية تاريخية، والتاريخ هو الذي يشكلها (...). والولاء للوطن والأمة هو النتيجة المنطقية التي يصنعها قبل ذلك الولاء للهوية"⁴ وبهذا نكون أمام ملك عام لا يجوز التفريط أو التخلي عن جزء منه مهما كانت الضريبة؛ ولأن الشاعر يدرك تمام الإدراك أن العرب لا يمكنهم التنازل عن هويتهم وجدناه يوظف في ديوانه أشكال متعددة منها لتحريك الضمير القومي الجماعي.

3- تجليات الهوية في الديوان:

1.3 أم أوفي؛ استدعاء للوفاء العربي:

يتكئ الشاعر في ديوانه على الاسم الحزلي أم أوفي* الذي استعاره من زهير بن أبي سلمى ليعبر على جرح من جراحات الأمة العربية والإسلامية وهي فلسطين التي ضيعها العرب منذ زمن ولم يسألوا عنها حتى في أحلك أيامها ونفيسه في قصيدة طويلة بعنوان "المرأة العنقوان.. و.. ضمير المتكلم..!!؟" يحاول أن يستفز المتلقي ويثيره بدءاً من العنوان الموحى بدلالات كثيرة منها: أن الوفاء فُقد وحُصر في فئة محدودة، وأن القدس (المرأة العنقوان) وحدها تكابد الظلم بصبر وشجاعة، وتكابر رغم التقائص والصعاب، والضمير العربي يعتره الخوف والاستسلام أحياناً، والقوة والتفاح أحياناً أخرى. يقول:

"أم أوفي" .. لا تدكُري الأمس إني

في حاك الصوّبي نغم الأديب..!

وُمحِبُّ مُمَيِّم .. وَزَنَادُ

يَتَجَلَّى رَغْمَ الدُّجَى .. وَيُؤْوِبُ

يَرْفُضُ الْمُسْتَحِيلَ مَهْمَا تَمَادَتْ

جَوْقَةُ (الْحَبْرِ) وَاسْتَطَالَتْ نُبُوبُ

فَعَلَى الْبَرْتَقَالِ يُرْهِرُ فِرٌّ

كَنْتَ هَيَّائْتَهُ.. فَكَيْفَ يَغِيبُ..؟⁵

تطالعنا هذه الأبيات بالتناص مع اسم خلد إبراهيم إسماعيل الشتات/ابن الشاطئ في دواوينه الشعرية التي تزيد على ثلاثين ديوانا بدءا من "المرأة القصيدة وزمان الوصل" ومرورا بـ"أم أوفى تتجدد رغم الليل الطويل" ثم ديوان "أبجدية المنفى والبندقية" فديوانه المدروس "النوارس تخرق جدار الصمت"⁶ فكانت هذه المرأة "أم أوفى" رمزا للثورة والأمل والعطاء، استلهم منها ابن الشاطئ معاني الوفاء للقضية رغم الهجر والبعد الذي يعاني منه فهو المنفي من وطنه كرها، والثائه في البلدان العربية بحثا عن منتصرٍ وداعمٍ، إته يعاني شتات الجسد الواحد/العرب" لقد كانت الوحدة أملا وهدفا وقضية ومستقبلا، بالنسبة إلى الشعب العربي، وهي لا تزال، من الناحية المبدئية، بالرغم من التغيرات الكثيرة في السياسة الغربية والدولية؛ واليوم أصبحت الهوية القومية للعرب قضية للجدل بعد أن كانت من قبل مسألة بديية"⁷ ورغم هذا التردّي والضياع في طريق البحث عن الوحدة العربية نجد الشاعر يعاتب أم أوفى في الأبيات سالفة الذكر لتحسرها على الماضي الجميل، وضياع الوحدة والعقائد الراسخة فيذكرها بوجوده الفعّال في قوله: "إني في حماك الصوّي نعم الأديب..!/ومحب متيم .. ورناد/ يتجلى رغم الدجى.. ويؤوب/ يرفض المستحيل مهما تبادت/ جوقة (الحرير) واستطالت نبوب"⁸ فهو القلم الذي لا يحف، واليد التي ترفع السلاح، والرافض للاستسلام للمستعمر مهما حاول الحبر تزييف الواقع وتجميله للرأي العام، ومهما عنت المستعمر ودمر أرضه وشعبه، ويواصل الشاعر في طمأنة أم أوفى/القدس ببقائه وتجذره في الوطن فيقول في آخر القصيدة:

هُوَ يَدْرِي مَاذَا تَكْتَسِينِ سِرًّا

وَمَتَى يَبْدَأُ الزَّمَانُ الْخَصِيبُ

وَهُوَ يَدْرِي أَنَّ الدُّمَى تَبْهَوِي

فَيْدَاكِ: الْمِيلَادُ وَالتَّعْرِيبُ..!

"أم أوفى" .. تلك الحقيقة فأمضي

إِنَّا الْبِضَالُ رِيحٌ غَضُوبٌ

تَقْلَعُ الشَّرَّ.. وَالْأَنَا.. وَنُصَّتِي

قَامَةَ اللَّيْلِ.. وَالزَّيْنَادُ الْخَطِيبُ..!⁸

يؤكد لأم أوفى في هذه الأبيات أنّ التصر يأتي من الداخل ويبد الشرفاء المناضلين الذين سيُصفون العدو دون اللجوء إلى أحدٍ، بعدما تيقن من غدر الأهل والأصحاب تطبيعا وموالاتة مع الأعداء.

كثيرة هي المواضع التي يستحضر فيها الشاعر "أم أوفى" في ديوانه محلّ الدراسة، وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا أنه لا ينسى ذكر هذا الاسم أو أحد إيجاءاته في القصيدة الواحدة بصور مختلفة كأن يذكر اسمها مباشرة (أم أوفى) أو يذكرها بضمير الغائب (هي) أو يصفها بالحبيبة. إلخ وكلها تحيلنا إلى أم أوفى التي يقصد بها فلسطين/القدس يقول في قصيدة: "الجبل.. لا تمزه الرّيح..؟!!"
هي لم تزل أُملي.. وغاية غايّتي

مهما جَزَى.. وبنادق التّثوير

لا تَسْتَكِينُ.. ولا تَدِفُّ.. وَهَمَّهَا

أَنْ نَلْتَقِي فِي سَاحَةِ التّحْرِيرِ

هي "أم أوفى" الرّمز.. في أعماقنا

شمسُ الشُّموسِ.. وقامَةُ التّغْيِيرِ

تَحْتَلُّ واجهَةَ العَصُورِ بَقِيَّةً

رَغْمُ الدُّمَى وَالقَمْعِ والتّهْجِيرِ"⁹

تتجلى لنا أم أوفى الرمز كرمز للهوية (العروبة/فلسطين) التي تأتي الدّل والهوان وترفض الخنوع والاستسلام للمتسدر العاشم، فهي الثائرة في زمن الصمت والتخاذل، والرافعة لراية التغيير رغم قوّة المستدر، والحاضرة وفاء وحبا رغم البعد والهجر، والدمار والشتات، فمن القدس تنطلق راية الحرية لنعم على الأرض الفلسطينية، وتشمل الأرض العربية فخرا وعزا.

2.3 عمر بن الخطاب؛ رمزا للفتوحات والورع

يستحضر الشاعر في هذا الديوان شخصية لها أثرها البارز في التاريخ الإسلامي "عمر بن الخطاب رضي الله عنه" فقد عرف بالرحمة والعدل، والشدة والزهد، وقد حقق من الانتصارات التاريخية ما جعل من فترة خلافته الأقوى. يقول الشاعر:

فَسَمًّا بِاللّهِ الحَبِيبِ

سَجْدِرُ نَهْجَا (عُمَرِيًّا)

وَرُؤْمٌ دُكُلُ الأَوْزَارِ

فَإِذَا الإنسانُ كَمَا المَاضِي

يَتَعَسَّقُ رُضْوَانَ البَارِي

وَيُجَاهِدُ نَفْسًا ظَالِمَةً

ويعيش نقي الأغوار
 فسما بالله الجبار
 فسما بالله الجبار
 ومفجر هذا الإغوار
 أتى ساجدًا تاريخي
 وأغري مجري الأنهار¹⁰

وفي هذا الحضور التاريخي نلمح رغبة الشاعر في استعادة "العهد العمري" وما حققته من انتصارات وأمجاد إسلامية "ومعلوم أن هذه الفترة من عمر الإسلام هي النموذج والقدوة التي يقتدي بها المسلمون ويسعون إلى الوصول أو الاقتراب منها"¹¹؛ أي العودة إلى الهوية والتمسك بالأصل من خلال تعطش الشاعر للرجوع إلى منبع الصافي/الفطرة وتجلي ذلك من خلال التوال اللغوية في قوله:(فإذا الإنسان كما الماضي، يتعشق رُضوانَ الباري، يجاهد نفسا ظالمة، ساجدًا تاريخي، وأغري مجري الأنهار)، فكان لهذا الاستدعاء عمق تاريخي وديني عزز من دعوة المتلقي للتفاعل مع القصيدة واقعيًا من خلال إحياء التراث وربط أجداد الماضي بمآسي اليوم والخروج من هذا النفق المظلم بالانكفاء على الماضي.

3.3 التخيل؛ دليل العروبة والهوية:

تميز البيئة العربية عن غيرها من البيئات بميزات مختلفة جعلت من سكانها يتأثرون بها وتميزون بميزات، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد التخلّة قد تجلّت في الكثير من ثقافتنا بدءًا من الدين الإسلامي (القرآن الكريم والأحاديث النبوية) الذي ذكر محاسنها وفوائدها الجليلة، ووصولًا إلى الثقافة العربية التي وظفت هذه الشجرة المباركة في مواضع كالفخر، والشهامة، والصمود، والكبرياء، والعطاء والالتقاء.. وغيرها من الدلالات التي أصبحت ضمن العادات والتقاليد التي يحتفي بها المجتمع العربي ولا يرضى بسواها. ونظرًا للمكانة الجليلة التي حظيت بها التخلّة في المجتمع العربي وظفها الشعراء والكتاب على حد سواء في إبداعاتهم بتجليات مختلفة، وابن الشاطئ في ديوانه يستضيف التخيل كرمز ليحيل به على الوطن والمقاومة، وكذا أشفة العربي. يقول في قصيدة بعنوان "المرأة العنقوان.. و.. ضمير المتكلم..!?!":

أَوْ مَا عَدتْ مِثْلًا كُنْتُ لَحْنًا

يَسْكُنُ الكِبْرِيَاءَ حِينَ يذُوبُ..؟

يَهَادِي التَّخِيلُ فِيهِه أَيْيَا

وَيُعْتِيكَ شَوْقُهُ العَنْدَلِيْبُ..؟¹²

نلمح الشاعر في هذه الأبيات يعاتب العرب لتخليهم عن حرم من الحرمات المقدسة للأمة؛ فقد تنصلوا عن الهوية والمبادئ العربية التي جبلوا عليها وهي نصرة المظلوم والمستضعف، والاستتابة عن حمى العروبة وشرفها ويوظف الشاعر في ديوانه دالاً من الدوال اللغوية "التخيل" كدلالة على العروبة والتأصل والتجذر في الوطن العربي / الفلسطيني وعلى أن فلسطين منهم ولا يمكن تهويدها مهما عبث المستدمر في الوطن وفسخ كل أشكال التراث والأصالة؛ فالخلة عند الشعراء والأدباء "لم تعد ذلك الكائن البشري فحسب الذي يعطي دون مقابل، بل تحوّلت دلالتها لتصبح معادلاً موضوعياً للوطن، وللمرأة الحبيبة، وللقضية الإنسانية العادلة"¹³ يحاول الشاعر التثبت بكل ما يجمعه ويقربه بالوطن الأم أياً كانت حتى المعالم الجامدة (التخيل، البرتقال، يافا، غزة، الأقصى..) والتي وظفها في قصيدته ليعبر عن صمود/استتابة هذه المعالم ضدّ العدو القابع على أرضه والكام على أنفاسه.

يعاني الشاعر من أزمة الهوية الناتجة عن مخالفة العربي لأصالته وتنصله من عقائده وثقافته السائدة في المجتمع، فالرؤى والأفكار والعقائد التي عاش يناضل من أجلها ضربها بنو جلدته عرض الحائط. يقول في قصيدة بعنوان "رمل الجفاف..و..كبرياء التخيل..!؟!"

وَوَزَّرْنَا دُمَى البترولِ.. وابتكرتْ

لَيْلًا جديداً.. وَطَالَ الصَّمْتُ والحَدْرُ..!

فَكَيْفَ يهْجُرُنِي حَزْفُ أصابعه

كَبُرُ الرِّتَادِ.. وفِوَاهُ الدَّمِ العَطِرُ..؟

تَشْتَأْفُهُ كبرياءُ التَّخِيلِ.. تَحْضُنُهُ

(حيفا)..وتزهر في أعطافه (مُضْر)؟

وتستفيق على جفنيه ذاكِـرَةً

حَصِيبةً تَبَعَتْ التَّارِيخَ..تَعْتَبِرُ..؟¹⁴

نلمح ابن الشاطي في هذه الأبيات يُصرح بالتخاذل المقيت والصمت المهين للعرب اتجاه فلسطين وبيعهم لذنمها بأرخص الأثمان، واصفا حالهم بالدمى التي لا تملك من أمرها شيئاً؛ فهم كالبيادق بيد الأسياد، ورغم الهوان والذلّ نلمحه يقف عنيدا مشرباً إلى أفق آخر غير الأفق الذي يعيش فيه، يتنفس عطر الدم الزكي وكبرياء المقاومة الذي يفتح على آمال جديدة تؤسس لحياة العزّ والشهامة فدلالة التخيل في هذه الأبيات تحمل معاني الرجولة والفحولة والأصالة والكبرياء التي يتصف بها العربي المستميت لأجل وطنه (حيفا) فتفيض من كبريائه معالم التاريخ أريجاً (مضر) كدلالة على عودة التاريخ المظفر بالتصر والفتوحات "لذلك كانت الهوية هي التاريخ، والتطابق مع التاريخ، ومعرفة في أيّ مرحلة من التاريخ تعيش الأمة، فلا تعيش مرحلة مضت، ولا

تعيش مرحلة قادمة، ولا تتوقف عن السير في المرحلة الراهنة انتظارا لمسار الأقدار¹⁵ فالشاعر يودّ استعادة الهوية المسلوقة من أرضه في ظلّ حاضر غير مرغوب فيه، ومستقبل لا تنكشف سياته، والماضي وحده من يحمل الضوء المنبعث من حناياه، ويعيد لليأس بصيص الأمل؛ فتنبثق أحلام التغيير للمرحلة الراهنة وتظهر في قول الشاعر: (وتستفيق على جبينه ذاكرة/خصيبة تبعث التاريخ..تعتبر..؟) لعلّ لكل هذا ينبغي أن نقول أنّ الشاعر يحلم بتغيير الوضع الراهن وصناعة هوية تتوافق مع الماضي المجيد والمسكون بهواجس التصرّف. كما يمكن أن يكون الهروب إلى الماضي محاولة للغوص في الهوية وملجأ روحيا يفرغ فيه الشاعر آلامه وآهاته ويستعرض من خلاله ضعفه وعجزه عن التغيير في زمن الجمود والهمود، والتصلب عن الواجب.

4.3 الهوية من خلال المكان:

يحتل المكان في الديوان الشعري مساحة كبيرة من خلال استدعاء الشاعر عددا كبيرا من الأمكنة (قرية مدينة، مدينة تاريخية، بحر..) والتي تبين خلفية الاتّماء ودوره في تأصيل الهوية، خاصّة وأنّ المكان عند ابن الشاطئ محلّ يفتقد أهله كما يفتقده أهله الذين تجرعوا عذاب التقي أو الإبعاد الجبري، فأخذ المكان قيمة مقدّسة، كما أصبح يرمز للهوية والتجدر في الأرض.

يساهم المكان في تحديد هوية الأشخاص وانتمائهم الثقافي، فهو "يخلد حضور الإنسان وأفعاله وممارساته أيّ أنّ الإنسان يصنع للأمكنة تاريخا شعريا/ سرديا، حتى يؤكد حضوره حقيقة ورمزا"¹⁶ وابن الشاطئ في ديوان النوارس تخرق جدار الصمت "يستحضر المكان بدلالات ثقافية مختلفة لتحيل إلى شعب أثبت حضوره الثقافي والحضاري بتجليات متنوعة فنلقيه في قصيدة بعنوان "لحظة الحركة الأولى.. و.. الرحيل..!!" يقول:

وتحضرني أياديك الحزّامى

وشوقك.. والمدخل.. والتّصوّل

فكيف أعيش بعدك..؟ إنّ حَيّ

(تَمِيّ)..تَجْتَدُهُ (الجليل)..؟

وتتجرّ فيه (غَرّة) دون قيّد

فَيُخْضَلُ "الحَيِّمُ" .. والأصيل

وتسهر فيه (بُرّ السّبع) ولَهَى

وتنظر في خوالجه (الجيل)..!

فكيف أعيش بعدك؟ بسّ عيش

يُخَدِّدُهُ رُؤَى ليل طويل..؟

أَبْتَى هَائِمًا في كِلِّ وادٍ

يُرَاوِدُنِي عَلَى نَفْسِي الذَّهْوُولُ...؟¹⁷

على الرغم من التفتي وألم البعد والحرمان الذي يتجرعه ابن الشاطئ بعيدا عن وطنه الأم إلا أنه يستحضر الأمكنة التاريخية (تميمي) كدليل على العروبة والأصالة والتجذر في فلسطين فيلقي بضلالها على أماكن جسدت صراعا على الهوية؛ فالكيان الإسرائيلي يدعي أنّ الأرض أرضه ويحاول تشويه الأماكن التاريخية والثقافية بكلّ قوة ووحشية، وشاعرنا في هذه الأبيات يحاول أن يفك هذا الصراع بالجهاد الذي تجسده "الخليل" وتمضي "غزة" في هذا المشروع دون قيود وكذلك الحال بالنسبة ل"بئر السبع" الذي يراقب بكل حبّ وشغف ويسعى جاهدا للحاق بإخوانه لأنّ الجليل تسكنه روحا، كما يتجلّى لنا أن ابن الشاطئ حاضر ومتابع لكلّ الأحداث في كل المناطق رغم التفتي فهو الحارس الوفي لكلّ شبر في فلسطين؛ فالوطن "يجاوز الحدود الجغرافية، هو الموطن المثالي، الوطن الفكرة، الوطن الروح، فمهما احتلّت الأرض فإن الروح لا يُحتل" ¹⁸ وهذا ما يجعلنا إلى أنّ ثمة خيط دائم يربط الإنسان بمكان ولادته، لأنّ فيه يرى ذاته وهويته حتى وإن كان بعيدا عنه، فهو يعيش فيه بخياله ويتواصل معه بروحه التي تسبح في الوطن رغما عن القيود والحدود؛ فالوطن في قلوب أصحابه حرا دائما.

ويمضي الشاعر في ديوانه يستحضر الأمكنة ليثبت حضوره في الوطن، ويفتح على عوالم وأفاق تجلب النصر للوطن المسلوب وفي قصيدة "المرأة المملوءة...ليلة الإسراء...!!" تنعكس في هذا العنوان الهوية الإسلامية في الوطن الفلسطيني الذي يحاول المستعمر جاهدا تزييف الواقع وتخويره. يقول الشاعر:

نَسْتَشْرِفُ الْآتِي.. وَنَفْخُ صَدْرَنَا

وخطوطنا الحمراء في الأجواء

ونُعَيِّرُ الأَوْضَاعَ.. نَقْلِبُ وَاقِعًا

فَرَضْتَهُ دُورُ العَرَضِ والأَزْيَاءِ

يَتَطَهَّرُ الإنسانُ بَعْدَ ضَلَالِهِ

وَيُطَلُّ وَجْهَ الشَّمْسِ فِي (حَيْفَائِي!)¹⁹

يؤثّر الشاعر في هذه الأبيات للمقاومة الشريفة التي تنتظر فلسطين ولادتها إذ لم تعدّ الوعود السياسية ذا جدوى ولا الوعود الكاذبة للزعماء العرب، ودلت عليها الكلمات التالية (خطوطنا الحمراء، نغير الواقع، قلب واقعا، فرضته دور العرض والأزياء، يتطهر الإنسان بعد ضلاله) فهو ينتظر إطالة الشمس/ الحرية على حيفاء أرض الصمود والشموخ والرفض والتحدى. ويواصل الشاعر في نفس القصيدة فيقول:

.. يَا "أُمَّ أَوْفَى" .. لَا أُحَاوِلُ مُطْلَقًا

أَنْ أُسْتَفِزَّ خَوَاطِرِي.. وَحُدَائِي

فَأَنَا وَحَقِّكَ وَاثِقٌ مِنْ أَنَّنَا
 تَبَّيَّ.. وَتَبَّعْتُ صَحْوَةَ الشُّرْفَاءِ
 وَعَلَى أَصَابِعِنَا سَيَطْلُعُ سَافِرًا
 صُبْحٌ يَكْتَسِرُ أَضْلَعُ الظُّلْمَاءِ
 تَزْهَرُ عَلَى كَفِّهِهِ (غَزَّةُ) حُرَّةٌ
 وَيَجْتَبِدُ الْأَقْصَى حَرَارَةَ شَوْقِهِ
 فِينَا.. وَيَسْحَقُ جَوْفَةَ الْعُمَّاءِ
 وَيَطْوِفُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ مُكْتَسِمًا
 تِلْكَ الدَّمَى.. وَأُنُوثَةَ الصَّحْرَاءِ!..
 يَا "أُمَّ أَوْفَى" ..هَيْتِي.. وَتَوَكَّلِي

ها قد أضاعت لئلاء الإسرائء!..²⁰

تتصارع الأفكار عند الشاعر تماما كما تتصارع الفرق والأحزاب داخل الوطن المحتل وخارجه بين مؤيد ورافض ومطبع وناشر فنلغيه يخاطب أم أوفى/فلسطين بأنه لا يمني نفسه ويسليها ولا يخفف عنها وعن نفسه بالكلام فقط، بل هو واثق من انبثاق الصباح الجميل بعد الليل الطويل والدامس، الذي يجلب بنوره الحرية لغزة وعكاء ويبلغ أقصى حرارة شوقه للمسلمين، ويطوف بالبيت العتيق ميذا كل العملاء الذين أنثوا صحراء العز والشهامة والرجولة وأصبحوا دمي في أيدي الأعداء، مناديا على أم أوفى بأن تنهيا وتتوكل فقد لاحت ليلة الإسرائء في الأفق تنشر بشرى التصر. لقد استطاع ابن الشاطي بفضل ما تتميز به اللغة من إفصاح ووصف على اعتبار "أن اللغة نظاما دلاليا، وجمالي أيضا، قادرا على استحضار كل الموصوفات والمذكورات في الذهن فيرسم الحيز/المكان وتحدد معالمه، وتتكون حدوده وتشكل جغرافيته الأدبية²¹ وبذلك استطاع أن يقدم دلالة المكان بكل إيجاء وتكثيف تاركا للمتلقى الخبير مساحة يشارك من خلالها برأيه خاصة وموقفه من القضية بعد أن وظف مناطق السكت /نقاط الحذف كعلامة على رغبة الشاعر في إشراك المتلقى لإنتاج نص جديد.

4-خاتمة

- إن معاناة الشاعر الفلسطيني وتقلبه في البلاد العربية جعله يجعل من شعره وقفا على القضية الفلسطينية يُعرف بقضيته، وبرز هويته المسلوبة، ليحث الشرفاء في البلاد العربية والإسلامية على وحدة الصف والكلمة تماما كما تجمعهم وحدة الهوية.

- ارتبط نضال الشاعر بتأسيس هوية قومية عربية؛ سعى لتأصيلها بالشعر عروبة للأرض ونضالا للإنسان الفلسطيني إلا أن الأفق يلوح بالحياة والتطبيع، والتخاذل والهوان، ومع ذلك بقي نضه وفيا للقومية العربية والإسلامية.

- اتسمت نصوصه بالمحافظة على التراث (الهوية القومية) والتعلق التصي/التناس، والرمز على أن هذه الأدوات لم تكن الوحيدة في الديوان، بل هناك آليات أخرى وظفها لترسيخ القيم والصمود والتحدى والثبات.

- وظف ابن الشاطئ في ديوانه الكثير من الشخصيات العربية (عمر بن الخطاب، المثنى، شرحبيل بن حسنة، طارق بن زياد...) ولكننا اقتصرنا في هذه الدراسة على "أم أوفى" لأنها أخذت مساحة أكبر من كل الشخصيات كما أخذت إسقاطات عديدة فهي المرأة الأم، وهي الزوجة، وهي الوطن، وهي القدس وفلسطين.. وغيرها من التجليات التي ظهرت بها هذه الشخصية في الديوان، وعلى "عمر بن الخطاب رضي الله عنه" لما له من مهابة وحضور في الثقافة العربية والإسلامية.

- تميزت نصوص ابن الشاطئ بوجود مفاتيح دلالية (الثورة، الوطن، الهوية، الكرامة، الذل) تسهم بالقدر الكبير في إثبات المعنى العام للنص والهدف الذي تسعى لتحقيقه، كما اعتمد الشاعر على أسلوب الاستدراج لتترك المجال للمتلقي من خلال مناطق السكت/نقاط الحذف ليثبت أن فلسطين جزء من الهوية العربية ولا يجب التخلي عنها.

- إن التقاء الإنسان بالمكان أو عدم التقاء به لم يعد ذا أهمية عند المبدعين، لاسيما المنفي أو المبعد كرها عن وطنه فذلك يتنسم أرضه الأم ويتعلق بها عبر التوال والدلالات اللغوية الكثيرة التي يتزاح بها للتعبير عن شجنه وشوقه لوطنه، فتظهره للمتلقي بصورة المتمسك بهويته، والمتأثر بها، والحالم بالعودة رغم كل القوى المناهضة لذلك. والمكان في الديوان لعب دورا هاما من خلال جلب هويته وترسيخ ذاكرته في وجدان أهله لاسيما منهم الغرباء والمنفيين.

- سعى الشاعر الفلسطيني لتترك مساحة حرة للمتلقي العربي ليشاركه بعضا من هواجسه الحاملة بين الواقع والمستحيل؛ فالقضية الفلسطينية تستدعي تضافر الجهود وتوحيدها لتحقيق الحرية على أرض الواقع.

هوامش:

¹- حسن حنفي، 2012م، الهوية، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، ص56.

²- المرجع نفسه، ص17.

³- المرجع نفسه، ص25.

- ⁴ - أحمد بعلبكي وآخرون، 2013م، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، ص24.
- * - أم أوفى: استعار ابن الشاطئ الاسم الحزل "أم أوفى" في مسيرته الشعرية الحافلة من زهير بن أبي سلمى التي خلدها في معلقته المشهورة ومطلعها: "أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دَمْنَةٌ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَهُ الدَّرَاجَ فَالْمُتَمَثِّمُ" حتى ينفخ على المعاني العميقة لهذا الاسم منها وفاء الشاعر لوطنه وتعلقه به رغم النفي والبعد والهجر رغا.
- ⁵ - ابن الشاطئ إسحاق إبراهيم شتات، 2016م، النوارس تخرق جدار الصمت، الجزائر، دار ابن الشاطئ للنشر والتوزيع ط1، ص20/19.
- ⁶ - أنظر، ابن الشاطئ، 2004م، ديوان أبجدية المنفى والبندقية، حسن الشاطبي العلامي، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية، الجزائر ط1، ص11.
- ⁷ - أحمد بعلبكي وآخرون، 2013م، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص22.
- ⁸ - ابن الشاطئ إسحاق إبراهيم شتات، 2016م، النوارس تخرق جدار الصمت، ص21/20.
- ⁹ - المصدر نفسه، ص29/28.
- ¹⁰ - المصدر نفسه، ص51/50.
- ¹¹ - خليل نوري مسير العاني، 2009م، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العراق، ط1، ص24.
- ¹² - ابن الشاطئ إسحاق إبراهيم شتات، 2016م، النوارس تخرق جدار الصمت، ص19.
- ¹³ - صلاح الدين باوية، جوان 2017م، النخلة بين الترمزية وتحول الدلالة، مجلة دراسات، جامعة محمد طاهري محمد، بشار/الجزائر، العدد 11، ص78.
- ¹⁴ - ابن الشاطئ إسحاق إبراهيم شتات، 2016م، النوارس تخرق جدار الصمت، ص35/34.
- ¹⁵ - حسن حنفي، الهوية، ص50.
- ¹⁶ - أنظر، أدونيس، 1983م، مقدمة للشعر العربي، بيروت، دار العودة، ط4، ص1.
- ¹⁷ - ابن الشاطئ إسحاق إبراهيم شتات، 2016م، النوارس تخرق جدار الصمت، ص41/40.
- ¹⁸ - المصدر نفسه، ص41/40.
- ¹⁹ - حسن حنفي، 2012م، الهوية، ص63.
- ²⁰ - ابن الشاطئ إسحاق إبراهيم شتات، 2016م، النوارس تخرق جدار الصمت، ص57/56.
- ²¹ - عبد الملك مرتاض، ديسمبر 1998م، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، الكويت، عالم المعرفة، العدد 240، ص135.

قائمة المراجع:

1. ابن الشاطئ إسماعيل إبراهيم شتات، 2016م، النوارس تخرق جدار الصمت، الجزائر، دار ابن الشاطئ للنشر والتوزيع ط1.
2. ابن الشاطئ، 2004م، ديوان أجدية المنفى والبنديقية، حسن الشاطبي العلامي، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية، الجزائر ط1.
3. أحمد بعلبكي وآخرون، 2013م، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1.
4. أدونيس، 1983م، مقدمة للشعر العربي، بيروت، دار العودة، ط4.
5. حسن حنفي، 2012م، الهوية، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1.
6. خليل نوري مسيهر العاني، 2009م، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العراق، ط1.
7. صلاح الدين باوية، جوان 2017م، النخلة بين التزمزية وتحول الدلالة، مجلة دراسات، جامعة محمد طاهري محمد، بشار/الجزائر، العدد 11.
8. عبد الملك مرتاض، ديسمبر 1998م، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، الكويت، عالم المعرفة، العدد 240.